من هوس الكتابة إلى هوس الإصلاح في فكر فريد الأنصاري

د. محمد جكيب

ليس من السهل الحديث عن الأستاذ فريد الأنصاري رحمه الله، نظرا لتعدد المجالات، التي كان له فيها حضوره القوي والمميز، فهو شخصية مركبة ومتعددة، يذكرنا ذلك بعدد من علماء الأمة على مر التاريخ ممن كانت لهم ثقافة موسوعية ومتنوعة، كان الواحد منهم متبحرا في كثير من مجالات المعرفة، مع القدرة على التصنيف فيها، خدمة لمجتمعاتهم ووفاء للوازع الديني الذي كان يحرك العالم في الاصطلاح العام أو المثقف بمصطلح الوقت، والدكتور فريد الأنصاري ينتمي إلى هذه العينة، وأحب هنا أن أتحدث بصيغة المضارع وليس بصيغة الماضي، لأن الدكتور فريد الأنصاري وإن كان غادر محطة الانتظار الدنيوية، إلا أنه ما يزال بيننا من خلال ما خلفه من زاد معرفي، ظل حريصا على استخلاصه من قلبه وتجربته وحبه للإنسان والإنسانية، وهو على فراش الرحيل، وحتى آخر رمق من حياته، رحمه الله تعالى، وكأن قدره هو أن يقوم بتأدية وظيفة محددة، هي وظيفة غرس ثمرة صالحة، ستجد من يتعهدها ويرعاها حق الرعاية، لقد قدم الأستاذ فريد الأنصاري ما قدر له أن يقدمه لهذه الأمة، وأدى الواجب، والدور على الأحياء لإكمال الطريق، ولذلك فإن المسؤولية تقع علينا من أجل النظر في عطائه الفكري المتنوع.

كان رحمه الله يقول إن عمر الإنسان قد يمتد إلى ما بعد الموت، ومعنى ذلك كما أفهم أن يخلف المرء ما يجعل ذكره إيجابيا ومستمرا بعد الموت، من خلال صدقة جارية إلى يوم القيامة، لتكون شاهدا له لا عليه، وليس هناك في ظني أرقى من العلم النافع، والأستاذ فريد الأنصاري ترك علما نافعا، يستحق به أن يكون أحد أعلام الفكر الإصلاحي في هذا العصر، وستكشف الأيام ذلك، وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر.

الأستاذ فريد الأنصاري، متعدد المواهب والكفاءات فهو العالم والباحث والمقاصدي والأديب الشاعر والروائي، والمتفوق في فنون الكتابة، كما تفوق في الخطابة، ويرجع ذلك إلى ثقافته العربية الرصينة التي حصلها وتشبع بأصالتها، وظلت تلك الأصالة ملتصقة بكل ما كتبه، ولا أظن أن شيئا كان يضاهي حب الأصالة في قلبه، ويضاهي رغبة التأصيل عنده، وما اشتغاله بعلم الأصول وتدريسه له سوى دليل على تلك الأصالة، والرغبة في التأصيل، وهذا هو ما يجعل من فريد الأنصاري مصلحا داعيا إلى مشروع إصلاحي متكامل، وصاحب رؤية حضارية حرص على إبلاغ مقوماتها وعناصرها الأساسية من خلال ما كتبه، وخاصة في المرحلة الثانية من مساره الفكري.

وفي الحقيقة هناك الكثير من الأشياء المتعلقة بالأستاذ تتزاحم في الذهن، وتأبى إلا أن تعبر عن نفسها كاشفة القيمة الكبيرة لهذا العالم الأديب، لكن حسبنا الإشارة إلى بعض العناصر التي تبدو مفاتيح رئيسة في الاقتراب من عالم الفريد.

إن الأنصاي صاحب مشروع حضاري، وصاحب رؤية إصلاحية عمل على إبلاغ عناصرها الأساسية ومقوماتها الكلية إلى مختلف مكونات المجتمع، وكانت هذه الرؤية ترتكز في ظني على عنصرين أساسين هما القرآن والإنسان، أي الانطلاق من القرآن والوصول إلى بناء الإنسان.

لقد شكلت هذه القضية هما كبيرا عمل أغلب فترات حياته على قصرها على بلورتها في مشروع عملي قابل للتنفيذ والتطبيق، والمقربون منه يعلمون كيف كان حريصا على ألا تبقى أفكاره حبرا على ورق، وأن تتحول إلى سلوك مطبق، وكانت وسيلته في ذلك الخطابة، وخاصة خطبة الجمعة، والوعظ والإرشاد، ومجالس الذكر، من خلال مجالس القرآن الكريم، التي ألف فيها كتابا أعتبره من أهم ما كتب في باب التربية ومنهجها.

وإذا أردنا أن نضع كل حقل معرفي من الحقول الأكثر حضورا في مشروعه، في الإطار المناسب له من مجموع مشروعه الفكري، فإن الحقل الأدبي يشكل عالم التطلعات والأحلام، والجمال، والبحث عن واقع مثالي، وانخراطه في نظرية الأدب الإسلامي دليل على إيمانه بأن الكتابة الأدبية، والفن بصفة عامة لا قيمة له إذا لم يربط الإنسان بخالقه، وإذا لم يكن البناء والإصلاح من أولوياته، وهو وإن لم يكتب في ذلك على حد علمي كتابا، إلا أن أعماله الأدبية وخاصة تلك الصادرة في السنوات الأخيرة، وخاصة في جنس الرواية تدل على ذلك دلالة واضحة. وما أجمل تفسيره الجمالي للصلاة والعبادة عموما، فقد غمره الاحساس بالجمال وملك عليه حواسه، فصار يتلمس معالمه في كل ما يربط الأنسان بخالقه، وبالكون الذي سخره الله أصلا له لإدراك هذا الجمال في كل شيء.

وأما علم الأصول ومقاصد الشريعة، فيشكل في نظري حقل التأسيس والتأصيل، وبناء الضوابط الشرعية الضامنة لكل تفاعل إنساني يرمي إلى إعمار الأرض وتسخير عناصر الكون وبناء الحضارة، وفق منهج ثابت ورصين.

وأما الحقل الثالث فهو الحقل الفكري وخاصة ما اتصل بالتربية السلوكية، وما تحتاج إليه من قدرة عميقة على التفعيل والتطبيق، وهو المجال الذي أتقنه الأستاذ فريد وبرع فيه، مرتكزا في ذلك على زاد متنوع من المعارف، بالإضافة إلى روحانية قوية، ازدادت عمقا عندما توسعت علاقته بكليات رسائل النور للأستاذ بديع الزمان النورسي، والروحانية الفكرية للمفكر الإصلاحي الأستاذ فتح الله كولن.

إن الخيط الناظم لهذه الحقول، والمنطلق المركزي هو القرآن الكريم كما سبقت الإشارة إلى ذلك، إذ هو الأساس الذي تتمحور حوله الرؤية الإصلاحية للأستاذ فريد الأنصاري، فالقرآن الكريم هو المفتاح الذي يفتح شخصية فريد الأنصاري، ويفتح أغلب أفكاره الفكرية إن لم نقل كل أفكاره، وخاصة تلك التي كتبت خلال المرحلة الثانية من حياته الفكرية.

تنقسم حياة فريد الأنصاري في ظني من الزاوية الفكرية إلى مرحلتين، مرحلة ما قبل التعرف على الروحانية التركية من خلال كليات رسائل النور، ومرحلة ما بعد التعرف على الرسائل، وهي في ظني مرحلة ذات منبعين، يتسمان بروحانية قوية، منبع النورسي ثم منبع فتح الله كولن.

شكل تعرف الأستاذ على الروحانية التركية من خلال تجربة الأستاذ النورسي وتجربة فتح الله كولن، تحولا كبيرا في حياته ظهرت آثاره في رؤيته الفكرية وفي أغلب ما كتب. والرواية هي الجنس الأدبي، الذي يستطيع المهتم أن يلمس فيه مدى تأثر الأستاذ فريد الأنصاري بالروحانية التركية، ويتلمس فيه ذلك التحول الكبير الذي قلب كيانه رأسا على عقب وبعقد مقارنة بين روايته "كشف المحجوب"، ورواية "آخر الفرسان"، يمكن التوصل إلى المدى الذي وصل إليه الأستاذ رحمه الله في توظيف الفن والكتابة الأدبية لخدمة الرؤية الفكرية المحركة، بل تعكس إلى حد بعيد كيف تتحول الكتابة الأدبية إلى وسيلة لنشر ثقافة التغيير والإصلاح الهادفة إلى بناء المجتمع الجديد المرتقب.

في رواية "آخر الفرسان" يمكن للمهتم بالأدب عموما وبالكتابة الروائية على وجه الخصوص لمس قدرة الأستاذ فريد الأنصاري على التجريب والتنويع في الكتابة والرواية.

الرواية في الأصل استلهام لحياة الأستاذ بديع الزمان النورسي، لكنها في الوقت نفسه عرض فني لمشروع النورسي الحضاري والإصلاحي، الذي تحولت أغلب عناصره إلى مشروع فريد نفسه يدعو إليه في حدود ما تتيحه الخصوصية المغربية. تعتبر الرواية من هذه الزاوية سيرة غيرية، من خلال استحضار الأنصاري لبعض جوانب حياة الأستاذ بديع الزمان النورسي، وهي في الوقت نفسه سيرة ذاتية من خلال عرضها لجوانب من تجربة الراوي وهو ليس غير فريد الأنصاري في رحلة اكتشاف العالم الروحاني للنورسي، وفي رحلة البحث عن الذات.

يعمل فريد الأنصاري في هذه الرواية السيرة على استحضار طيف النورسي، ليساعده على اكتشاف حقيقة ذاته، ويلح عليه في الطلب، لكن الفارس العائد وهو الشخصية المحورية والغائبة الحاضرة باستمرار في عالم الرواية، يأبى إلا أن يدفع الراوي الباحث عن الحقيقة واللاهث وراءها بشتى الوسائل إلى الوصول إلى تلك الحقيقة وحده لأنها قريبة منه وتحتاج منه إلى مجاهدة النفس وتنظيفها حتى تنجلي معالمها، وهذه الحقيقة الموصلة إلى المعرفة هي القرآن الكريم وحقيقة دوره في محطة الانتظار قبل الرحيل.

لقد وظف الأديب الروائي نجيب الكيلاني في رواية "عمر يظهر في القدس" التقنية نفسها من خلال استحضار شخصية عمر بن الخطاب (ض) الذي يظهر في القدس وقد حل ما حل بها من مآس وويلات، ليقف مشدوها أمام هول ما أصاب المسلمين من ضعف حتى فرطوا في القدس.

وإذا كان نجيب الكيلاني في روايته هذه يبدو يائسا من الوضع رغم عودة عمر، فإن الأنصاري يبدو أكثر تفاؤلا وثقة، لتمكنه من وضع يده على الدواء الكفيل بإدابة كل الأمراض القلبية، معتبرا منهج الأستاذ النورسي يحمل في طياته ذلك العلاج من خلال الإرشاد إلى الصيدلية الكبرى، ولذلك فإن قارئ الرواية سيلمس شخصية فريد الفرحة والمنشرحة والسعيدة لأنها وضعت يدها على أول طريق يقود إلى الفوز في الدنيا والآخرة.

ستعرف الأيام القليلة المقبلة صدور رواية "عودة الفرسان" التي حرص الأستاذ فريد الأنصاري وهو على فراش الموت على إتمامها تكملة للحلم الذي بدأه مع "آخر الفرسان"، وقد استلهم في هذه الرواية التي ربما تكون آخر ما كتب قبل أن يجيب داعي ربه - عناصر من حياة تجربة الأستاذ فتح الله كولن، وأخبرني من كان ملازما لفريد الأنصاري أنه كان كثير التدقيق في تتبع بعض الحقائق المتعلقة بالأحداث التي تؤثث مسرح الحكي في الرواية، الشيء الذي يدل على أن فريد الروائي، لا يكتب من أجل الكتابة، بل يكتب لغاية محددة لا تدرك إلا في إطار رؤيته الكونية، تحتاج إلى جهد من الكشف عنها.

وعلى العموم فمهما قلنا في هذه العجالة عن الأستاذ فريد الأنصاري فلن نوفيه حقه وأعتبر نفسي مطالبا بضرورة تعميق البحث في فكره وأدبه من أجل الوصول إلى ما سيعود بالنفع على هذه الأمة.

العالم الجامع

ما زلت أتذكر ما قرأته منذ مدة في كتاب يرجع إلى القرن الثالث الهجري حينما نص صاحب الكتاب وهو يقارن بين خطأ الطبيب في طبه، وخطأ العالم في علوم الشرع، في الفهم أو الفتيا، فأكد بكل وضوح أن الخطأ في علم الشرع أفظع وأكبر من الخطأ في علم الطب، حيث أن الطبيب إن أخطأ، فإن الضحية يكون فردا واحدا، أو أفرادا معدودين على أكثر تقدير. أما الخطأ في علوم الشرع فقد تكون الأمة بأكملها أو على الأقل جماعة أو شريحة اجتماعية معينة التي تقتدي بهذا العالم. ولذلك فإن العالم في مجال الشريعة مطالب بأن يحتاط قبل ان يصل إلى أي فهم، أو أن يصدر أي فتوى. ومن الأكيد أن هذا الاحتياط يقوم على أساس فهم ودعامة قوية، وهي دعامة اللغة، ولذلك كان شرط معرفة اللغة العربية من الشروط الأساسية لكل من أراد أن يعتلي منصة الفقه أو التفسير لكن هذا الشرط ضعف عند العديد من المشتغلين بعلوم الشريعة في العصر الحاضر، ولا عجب في ذلك فقد أضحت علوم الشريعة من المراكب المَيَسَّرة التي يمتطيها كل من هب ودبَّ، حتى أصبح الناس كلهم يتكلمون في الشأن الديني. حتى ولو لم تكن لهم به أدنى علاقة.

قليل هم العلماء الذين جمعوا بين علم الشريعة وبين علم اللغة من حيث التكوين، وأقلهم من استطاع أن يؤلف من هذين التكوينين ليستضيء بهما معا في فهمه، وقليل من هذا الأقل من رزقه طبعا في معرفة أسرار النظم الأدبي، فألف بذلك إبداعا أدبيا في مجالي الشعر والنثر.

هكذا كان حال الأستاذ العلامة فريد الأنصاري رحمه الله. تشبع بالدراسات الشرعية أولا وخاصة في علم الأصول، وكانت أداته في ذلك أداة لغوية بلاغية، القائمة على منهج الدراسة المصطلحية. وقبل هذا وبعده، كان رحمه الله بليغ اللسان ، وكتب في الشعر والنثر معا، ومن لطيف ما كان يشتغل به في أواخر حياته رحمه الله، إنتاج أدبي تمثل في زاوية جديدة ، ربما ترى النور عما قريب إن شاء الله.

إنه العالم الجامع، متخصص في علم، لكن هذا التخصص لا يحول بينه وبين أن يطلع على العلوم الأخرى، وخاصة علوم الأدب واللغة والبلاغة.

لقد كان من فضل الله على الأستاذ فريد الأنصاري رحمه الله أن كان قلبه ميالا، فألف مجموعة من الكتب في شتى المجالات، وكتب عددا من الأشعار بالإضافة إلى روايتين، وكان في كل ذلك موفقا، داعيا إلى الله على بصيرة.

رحم الله الفقيد وغفر له وللمومنين والمومنات، وأسكنه فسيح جناته، ورزق أهله الصبر، ووهب لنا نحن العوض بظهور علماء مجاهدين، إلى الدين داعين، وعلى الحق ثابتين، وعن الباطل مديرين، لا يخافون في الله لومة لائم.

د. عبد الرحيم بلحاج